ابن العميد

عصره:

يُعدُّ القرن الرابع عصر الكمالي العلمي والأدبي في الإسلام: استقرت فيه القواعد، وتعينت المعالم والمناهج، ودُوِّن ما تيسر تدوينه في اللغة والأدب والشريعة، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الأوائل، وخف الصراع بين حملة الدين، ورجال الحكمة والعقل، ونشأت الفرق الباطنية، وكلها تريد إقامة مُلك، واتخذ دعاتها من آل البيت تكأة، وصبغوا نحلهم بصبغة دينية.

وكان الأدب في مقدمة الفنون التي بلغت في هذا العصر إناها، بنبوغ أعظم شعراء الحضارة العربية، تقدمهم رعيل جميل في القرنين السابقين. أدخلوا على الشعر معاني جديدة، وما غيّروا موازينه وأوضاعه، وأنشأ الكُتَّاب يتفننون في الإنشاء المصنّع، فضيقوا المنافذ في أداء المعاني، وغلوا في التطويل والتهويل، فأصبح النثر لكثرة التعمل فيه أشبه بشعر لا أوزان له، ولم يعرف في ذلك العهد (علم جاهلي ولا إسلامي إلا وأهله عربيون أو متعربون يكتبونه باللفظ العربي والخط العربي).

وسكن ثائر الشعوبيين أعداء العرب، وكان دأبهم إلقاء بذور التفرقة بين الشعوب التي وحّد الإسلام بينها، وساوى بين الكبير والصغير في الحقوق والواجبات، واغتبط الشعوبيون من الفرس بقيام دولتين شيعتين في العالم: دولة بني بويه الديلم في الشرق، استولت على فارس والعراق، وجعلت الخليفة العباسي

شبحًا بلا روح؛ ودولة بني عبيد الفاطميين في إفريقية، وعمل القرامطة أفاعيلهم في العراق والشام والحجاز وما انتظمت لهم دولة، وقرض محمود بن سبكتكين الدولة السامانية الشيعية من خراسان وما وراء النهر، وفتح القسم الشمالي من بلاد الهند وأضافه إلى مملكته، وخدم الآداب والعلوم، وضرب المعتزلة ضربة قاضية في أرجاء مملكته.

كان الفرس أهم العناصر الإسلامية التي عنيت بنشر العربية منذ رفرف علَم الإسلام على ديارهم، وقد أحرزوا في العلم والسياسة أفضل منزلة، لما خصوا به من الاستعداد لقبول الحضارة، أعانهم على ذلك إلفهم الحكم والنظام، وتفانيهم في طاعة العظماء والملوك، وكانوا في القرون الأولى من خير الشعوب التي قامت بحق الإسلام.

وبينا كان خاصة فارس يتوفرون على خدمة الإسلام والعربية، لا يتخذون عن لغة الدين والدولة والعلم بديلًا، كان أناس من عشاق القومية الفارسية يسرون حسوًا في ارتغاء[1]، ويلوبون على من يقيم لهم دولة، ذات وزن وصولة، وقد آلمهم تراجع لغتهم أمام العربية، ومنازعة العربية الفارسية في عقر[2] دارها، حتى أصبحت لسان المدن؛ ووجدت الفارسية معتصمًا لها في الأرياف والجبال بين الأكَّارين والسُّوقة. والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع أهل فارس، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم. وبالعربية تكتب مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس. ولما اجتاز أبو الطيب المتنبي بشعب بوّان وأرَّجان والنوبندجان انقبض صدره لقلة من يتفاهم وإياهم فوصف الحال بقوله:

---

(١) الارتغاء: شرب الرغوة، وأصله أن يؤتى الرجل باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة ولا يريد غيرها فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن. يضرب لمن يريك أنه يعينك وإنما يجر النفع إلى نفسه.

(٢) العقر بضم العين: وسط الدار وأصلها، ويفتح.

مغـــاني الـــشعب طيبًـــا في المغـــاني بمنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــان
ولكـــن الفتـــى العـــربي فيهـــا غريـــبُ الوجـــه واليـــد واللـــسان
ملاعـــب جِنّـــة لـــو ســـار فيهـــا ســـليمان لـــسار بترجمـــان

كان يرمض دعاة القومية الفارسية، أو مَن يريدون تحريك عرقها الحساس، أن يشهدوا العربية تُعرِّب كل يوم جماعة من أبناء فارس، فلم يروا لوضع حد أمام ذاك التيار الجارف إلا إثارة النُّعَرة الدينية، تدعمها دعوى الغيرة على ضياع حقوق العترة العلوية، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دولة، وينزعوا الحكم من العرب آخر الدهر.

كان يُرمضهم أن يروا نيسابور وشيراز والري ومرو وأصفهان وهمدان تتنافس في بث العلوم والآداب، وأن يؤلف المؤلفون، ويعظ الواعظون، ويدرس المدرسون من أبناء فارس باللغة العربية، وأن يمسي أدب آبائهم عبارة عن شعر ما رُزق من يصفق له، وأن تغتني العربية بالعلوم الكثيرة، فحاولوا إشراب نفوس قومهم حب آدابهم القديمة، ولم يكن الشعر الفارسي بهذه اللهجة المعروفة مما يعهد قبل القرن الثالث؛ وقد نشأ مع شاعرهم الروذكي السمرقندي (٣٢٩) (الذي كان مقدمًا في الشعر بالفارسية في زمانه على أقرانه).

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربية بأرض الأعاجم في ذاك العصر، وعلى مقدار تراجع السياسة العباسية، كان العلم العربي يزيد انتشارًا ورسوخًا، وتتعدد مواطنه، وتقوم أسواقه، وما كانت مراكز الآداب في القرن الرابع في قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب وغزنة والري وسمرقند تقل كثيرًا عن مكانة بغداد، ومن قبلُ البصرة والكوفة في هذا المعنى. كان الناس يحملون إلى بغداد علمهم وأدبهم أيام عظماء خلفائها، فخلف من بعدهم خلف من الضعفاء غدت بهم بغداد

تنقل أدبها إلى العواصم المستحدثة. ولما قامت دولة بني بويه واتخذت من الري قصبة بلاد الجبال عاصمة لها، أصبحت بعد حين دار علم، ومثابة أدب، على مثل ما كانت عاصمة الأمويين في الأندلس، وعاصمة بني الأغلب في إفريقية، وعاصمة الطولونيين في مصر، وعاصمة الغزنويين في خراسان.

وكانت الريّ وما إليها من أرض فارس في هذا العصر مجموعة من المذاهب الإسلامية فيها الشيعة الإمامية والغالية، والأحناف والشوافع والمعتزلة والخوارج وغيرهم. وظل أهل الرَّي على مذهب أهل السنة والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعة، وأظهر التشيع وأكرم أهله، فتقرب الناس إليه بتصنيف الكتب، فأصبحت جمهرة أهل الري شيعة غالية، وكان ذلك في أواخر الربع الثالث من المائة الثالثة. ومن أهل هذا المذاهب كان بنو بنويه أصحاب الدولة. وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعة إمامية غالية، ومعظم العلماء في أرض فارس من أهل السنة، والملوك يخطبون ودّ أرباب المعرفة من جميع الطبقات والمذاهب.

أوليته وسيرته:

في هذه البيئة نشأ أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد، من بيت فضل وصدارة، وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف كاتبًا مذكورًا في خراسان، وله باع في السياسة (تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان)، (والعميد لقب والده ولقب بذلك، على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم).

والغالب أن ابن العميد وُلد في آخر سنة من المائة الثالثة، لأنه عمَّر ستين سنة، ومات سنة ستين بعد الثلثمائة، (وكان يعتاده القولنج تارة، والنقرس أخرى، تُسلمه هذه إلى هذه)، وقيل: إنه أخذ العلم في بغداد ورحل إليها مرة أو مرتين وهو وزير،

ولذلك كان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها، ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه وبعد وفاته بالريّ وكور الجبل وفارس يتدرج إلى المعالي ويزداد على الأيام فضلًا وبراعة، حتى بلغ ما بلغ، واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل)، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة. ولما تقلدها وكان دون الثلاثين، أتته السعادة في صباه، وتمت أدوات علمه وأدبه، وهو يتولى أعمال الدولة، وطالت أيام وزارته حتى أربت سنوها على زمن صباه ودراسته، ودُعي ابن العميد بالأستاذ الرئيس لجمعه بين الإمارة والأدب، وذهب له هذا اللقب عن جدارة، ولقب أيضًا بلسان المشرق.

أجمع من ترجموا لابن العميد أنه فارسي من أهل قم، ولا يفهم من كونه فارسيًّا أنه من صميم الفرس، فقد يسكن العرب أرض العجم وهو عربي بأصوله فينسب إلى البلد الذي نزله أو ولد فيه. وما هو فارسي بالمعنى الذي نفهم به اليوم هذه النسبة[1]، ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عربًا أقحاحًا، نشئوا في تلك الأرض فنسبوا إليها، وقد حدثنا التاريخ بأن مئات من علماء المسلمين وأبناء الأنصار والمهاجرين هاجروا إلى الأقطار التي فتحت على أيدي العرب في الشرق

(١) تعلم أصول من اشتهروا في فارس من العلماء بإلقاء نظرة على كتب الأنساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم، فقد نسبوا صاحب الأغاني إلى أصفهان وهو أموي عربي، ونسبوا صاحب القاموس إلى فيروزآباد وهو بكري عربي، ونسبوا القزويني صاحب آثار البلاد إلى قزوين وهو عربي من سلالة مالك بن أنس، ونسبوا ابن حيان البستي صاحب التآليف العظيمة ومن طبقة البخارى إلى بست وهو تميمي، ونسبوا أبا حيان التوحيدي إلى شيراز وهو من صميم العرب، وكان أبو داود السجستاني صاحب السنن من الأزد، وأبو العباس النسوي مصنف المسند من بني شيبان، وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب المسند من بني قشير، والهروي المفسر من ولد أبي أيوب الأنصاري، وأبو الوليد النيسابوري فقيه خراسان أموي من ذرية سعيد بن العاص الأكبر، والفخر الرازي المفسر عربي. وقال ابن قتيبة: إن خارجة بن مصعب هو من بني شجنة من ضبيعة، وكان من أفقه أهل خراسان وأرضاهم عندهم وعقبه بخراسان، وكان أبوه مصعب بن خارجة مع علي بن أبي طالب.

والغرب فنسبوا إلى أوطانهم لا إلى آبائهم كما كانوا من قبل فضاعت بذلك أصولهم.

وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثًا وتأصل فيه بالدرس، وكم من غريب عن هذا اللسان خدمه خدمة أبنائه الأصليين وفضله على لغته وعلى كل لغة عُرفت. وقد قال أبو الريحان البيروني، وهو من خُوَارزم ومن أعظم علماء الإسلام: «الهجو بالعربية أحب إليَّ من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزال الانتفاع به، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية».

لم نعرف من أساتذة ابن العميد غير محمد بن علي بن سعيد[1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمي، وكان يعلم علم الأوائل وهو (صاحب الأدب والحكمة والنجوم والترسل والإملاء)، ولعله كان يذهب مذهب الاعتزال فلقن تلميذه مذهبه فأصبح مثله على مذهب أهل العدل والتوحيد، في إقليم يغلب التشيع على السواد الأعظم من أهله، وما منع ذلك ابن العميد أن يخدم ركن الدولة بن بويه، وكان شيعيًّا غاليًا، ولا أن يتخرج به عضد الدولة بن بويه في إدارة الملك والدولة.

(١) هكذا ورد اسمه في فهرست ابن النديم، وفي رجال النجاشي: أنه أحمد بن إسماعيل بن عبد الله أبو علي بجلي عربي من أهل قم يلقب سمكة، كان من أهل الفضل والأدب ويقال: إن عليه قرأ أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب لم يصنف مثلها، وكان إسماعيل بن عبد الله من غلمان أحمد بن عبد الله البرقي وممن تأدب عليه، ومن كتبه كتاب العباسي وهو كتاب عظيم نحو عشرة آلاف ورقة في أخبار الخلفاء والدولة العباسية رأيت منه أخبار الأمين وهو كتاب حسن، وله كتاب الأمثال كتاب حسن مستوفى، ورسالة إلى أبي الفضل بن العميد، ورسالة في معان أخر... إلخ.

غلبت الحكمة على ابن العميد، وتخللت شغاف قلبه، وكان أدبه غير أدب أبناء جيله، كان أدبًا ممزوجًا بعلوم عقلية، فيه شفوف نادر، وطبيعة مؤاتية، ونفس حساسة، تزن كل شيء بميزان النقد، حتى الألفاظ والقوافي والأوزان والأسجاع، وحتى الكلام العادي والأحاديث المرددة. ونشأ ابن العميد نشأة أدبية وسياسية، عرف البلاد وأمزجة أهلها، وعرف ما يصلحهم ويرضيهم ويرعاهم. ذكر مسكويه أنه سمعه في كثير من خلواته يشرح لابنه أبي الفتح (صورة الديلم في الحسد والجشع، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجه إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالًا، وأن من قد دعاهم واحتشد لهم، وحمل على حالة فوق طاقته، لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته، والسعي على إزالته، وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم، فيفتكون به ذلك الوقت).

قال: «وكان لوفور عقله يداري أمره مع صاحبه ومع عسكره، ثم يسوس رعيته والممالك التي يراعيها، ويدبر الجميع تدبيرًا ملائمًا لوقته، موافقًا لزمانه، فلا يظهر من الزينة وأبهة الوزارة إلا بمقدار ما يقيم به مرتبته، ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس، ثم يتواضع تواضعًا لا يخرج به إلى غضاضة تلحقه في جاهه، أو تحطه عن المنزلة العالية التي يرقى إليها، وكانت سلامته طول مدته على أصناف الناس وطبقاتهم، وقيام هيبته وتمام سياسته، متصلة تزيد على الأيام ثناء وثباتًا».

ومن سياسة ابن العميد، وهو الصدر المقدم في الآداب والسياسة، أنه كان يصون مجلسه عن الخوض في مسائل الخلاف في الدين، وقد يقاطع من يحاول المناقشة فيه، وهو جدٌّ عارف بأهل الأثر وأهل الرأي من فقهاء الأمصار، بصير بالمحكم والمتشابه من آي القرآن، إلى معارف جمة في النحو والتصريف واللغة

وأشعار العرب، يدرك ما يجر الخلاف من تبعات على دولة اختلفت مذاهب سكانها وأجناسهم، وتباينت أهواؤهم ودرجات ثقافتهم، خصوصًا ومذهبه غير مذهب سلطانه، وهو فوق ذلك متشبع بالحكمة حتى ليتهمه بعضهم في دينه، شأن الناس منذ العهد القديم مع من يشتغل بهذا العلم البغيض إلى الفقهاء وأتباعهم؛ والناس في كل زمن أسرع إلى تكفير أهل التفكير من الماء إلى المنحدرات.

كان خلطاء ابن العميد ومنادموه من مذاهب مختلفة، فيهم مسكويه قيِّم خزانته وهو فيلسوف مؤرخ، وفيهم أستاذه ابن سمكة وأبو محمد بن هندو وكلاهما فيلسوف إلهي، وفيهم أبو الحسين بن فارس أديب، وابن خلاد القاضي أديب وفقيه، وأبو الحسن العلوي، وأبو العلاء السروي شاعر وكاتب، وكان يحاضرهم ويجالسهم ويهاديهم ويكاتبهم إذا غابوا ويجاوبهم نظمًا ونثرًا؛ حتى لقد قيل: إن أحسن ما كتب ابن العميد رسائله في الإخوانيات. وكان لا ينظر في التراسل مع إخوانه إلى ما بينه وبينهم من التفاوت في المصطلح عليه من الدرجات؛ أي أنه هو وزير وهم رعية، يسحب ذيله على ما يكون منهم؛ وما عُدّت عليه هفوة مع صديق، وما كان ممن يخرج على حقوق الصداقة، وفي نظره أن لا اعتبار في الصداقات لاختلاف الدرجات، والمشاكلة في الفكر والعواطف أثمن صداقة. قالوا: وكان يفتخر بالحسن بن إسحاق بن محارب القمي ويقول: لو لم يخرج من بلدنا سواه لكان كافيًا.

كانت معاني الحب متأصلة في ابن العميد، وروحه تحب، وإذا أحبت تخلص في حبها، وربما برّح به حبه، ثم إن نفسه عظيمة لا تكره ولا تبغض، والكراهة والبغض على الأكثر من آثار الضَّعة، ولؤم الطباع، والتواء المقاصد، وكل أولئك كان الأستاذ الرئيس غنيًّا عنه؛ لأنه يُعطي ولا يتوقع من غيره العطاء، ويمنع ولا

يخشى الناس أن يمنعوه، وليس له بعد هذا إلا أن يتحبب إلى الناس، ولا سيما أهل الذكر والفكر.

أَلِف ابن العميد عَلَى ما بلغه من رتب المجد في دنياه، المذاكرة في فنون العلم على سنَّة علماء السلف وأدبائهم، واعتاد أن يفضل على خاصته وقاصديه، خصوصًا إذا لم يَدِلّوا عليه بأدبهم في مجلسه. كان يكره من يريد أن يُنفق عليه بأوه[1] ودعواه، وكثيرًا ما يستهدف لغضب أهل هذه الطبقة، فيقدمون على هجوه، وينصرفون عنه لاعنين طاعنين، كما وقع لابن نباتة السعدي ولأبي حيان التوحيدي، فإنهما تجهَّما له؛ لأنهما لم ينالا ما كان يؤملان منه، فجسرا على هجوه.

جعل ابن العميد لكل شيء نظام في وزارته، يعمل للمصلحة العامة ما استلزمت من الأوقات، فإذا فرغ انصرف إلى العلم والأدب، فهو على هذا يحمل شخصيتين: شخصية سياسية إدارية، وأخرى أدبية فلسفية، وكثيرًا ما تكون مجالسه مجالس العالِم لا مجالس السياسي، يقرأ عليه من يقصده من العلماء والأدباء ما يحبون التوسع فيه من صنوف الآداب، على نحو ما جرى له مع أبي الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري، قيل: إنه شرح له كتب أرسطو و(برك بين يديه واستأنف القراءة عليه، وكان يعد نفسه في منزلة من يصلح أن يُتعلم منه، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه، ودرسه إياها). وهو بالطبع يستفيد من القراءة والإقراء، (وضبط أعماله ونظم أموره، ورتب أسباب خدمته، حتى كان أكثر نهاره مشغولًا بالعلم وأهله) مما كان سببًا أعظم في عظمته وشهرته. ورُبّ وزير كان قبل الوزارة شيئًا مذكورًا في العلم فأصبح لا شيء بعدها، لاستغراق أوقاته كلها بالمصالح

(١) البأو: الفخر بالنفس.

العامة، ورد عادية الأحزاب والأعداء عنه وعن سلطانه. أما ابن العميد فكان قبل وزارته معروفًا بالفضل، وفي الوزارة أخذ بحظ وافر من حسن السمعة.

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه في عمار الملك، وبسط العدل في ربوعه - وكان مسكويه على ما يظهر مأخوذًا بحبه عاش في نعمته أيام صباه سبع سنين- قال: «فأما اضطلاعه بتدبير الممالك، وعمارة البلاد، واستغزار الأموال، فقد دلت عليه رسائله ولا سيما رسالته إلى أبي محمد بن هندو التي يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها، وما يجب أن يتلافى به، حتى تعود إلى أحسن أحوالها، فإن هذه الرسالة يتعلم منها صناعة الوزراء، وكيف تُتلافى الممالك بعد تناهي فسادها. وما منعه من بسط العدل في ممالكه، وعمارة ما يدبره منها إلا أن صاحبه ركن الدولة، مع فضله على أقرانه من الديلم، كان على طريقة الجند المتغلبين، يتغنّم ما يتعجل له، ولا يرى النظر في عواقب أمره، وعواقب أمور رعيته، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحدًا تلافيه وردهم عنه».

أتى مسكويه بوصف مخدومه في معرض المدح، والمعقول أن من يقتدر على إزالة الأذى ويسكت عن رفعه مؤاخذ في الشرائع. رأى ابن العميد السير على طريقة لينة، فيها التغاضي والتعامي، حتى لا يغضب الجند ولا يغضب سيده الملك ولا يناله مكروه بسببهم، ولو صح عنده تخريبهم وظلمهم، فترك العائثين والعابثين وشأنهم، يُمنِّي نفسه أن يأتيه الوقت الملائم فيحكم فيهم حكمه، وينقذ مملكته من أوصابها وأوبئتها النفسية والإدارية، وسياسته هذه لا تنجو من اللوم في نظر أرباب الحزم من مدبري الممالك.

أدبه وعلمه:

عرفنا بما تقدم نوع السياسة التي تعلقت بها همة ابن العميد، ووقفنا على صورة من حالته، والآن نعمد إلى تحليل هذا الضرب من الأدب الذي عرف به وخلَّد ذكره في العالمين؛ قالوا: إنه واضع طريقة الشعر المنثور، وإنه كان يلتزم السجع تارة ويطرحه أخرى، هذا رأي ابن سنان فيه. قال: إنه كان يترك السجع ويتجنبه، وطريقته استعماله مرة ورفضه أخرى، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير، أو الإكراه والتكلف. وما وصلنا من كتاباته يضطرنا إلى أن نحكم عليه حكمًا يخالف حكم ابن سنان، ذلك لأنا رأيناه كان إلى التسجيع والمزاوجة أقرب، وما ندري أيضًا إن كان وصفه بخاتمة الكتاب ينطبق على الواقع، أم فيه شيء من المصانعة لابن العميد في قولهم: «بُدِئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد»، أم هي السجعة التي اصدرت هذا الحكم، كما كانت سجعة الصاحب بن عباد في قاضي قُمّ هي التي نحَّته عن منصبه يوم كتب إليه: «أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم، فقال القاضي: والله ما عزلتني إلا السجعة». وكان يقول: أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب.

عاصر ابن العميد عشرات من الكُتَّاب، وجاء في أيامه وبعده كثيرون كانوا أطول منه باعًا في هذا الفن، وفي مقدمتهم بديع الزمان الهمذاني وأبو حيان التوحيدي، فنسي الناس أو تناسوا من لم يَحُظُّهم الحظ حتى يشتهروا من كل وجه، ولهج الناس بنثر ابن العميد وشعر ابن العميد فتأفقت شهرته وعددوا مناقبه ومحامده، وسكتوا لمنزلته من السلطان عما عسى أن يكون فيه من ضعف ونقص، وحكمنا هذا على ابن العميد مستند إلى رسائله الباقية في كتب الأدب والأخبار،

وفيها شاهدناه يكثر كأهل قرنه من السجع، ولم نر شحن كتابنا بما أُثر عنه منه، فاقتصرنا على كلامه المرسل، وحكمنا عليه بالأسلوبين.

نقل أبو حيان التوحيدي -وهو كما علمتم عدو ابن العميد- عن ابن الجمل وابن ثوابة أن أول من أفسد الكلام أبو الفضل ابن العميد؛ لأنه تقيَّل مذهب الجاحظ وظن أنه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدًا من الجاحظ قريبًا من نفسه، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: (بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والنزوع) وهذه مفاتح قلما يملكها أحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها أحد.

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع، وفيه ظهر أعظم السجاعين، فما وسعه أن ينحل من قيوده؛ بل أخذ بمجاراة أهله، فهو ابن عصره في هذا المنحى، إلا أنه كان أقل من غيره على ما يظهر تأثرًا بالأفكار الفارسية، وهذا داعية العجب، كان أقرب إلى العروبة في أكثر مناحيه، وفارسيته مقصورة على مصطلحاته وعاداته. كان تأثره بكلام الأقدمين -وهو الحافظ المكثر من شعر العرب الجاهليين والإسلاميين- أوفى من تأثره ببيئته، هو عربيُّ الأفكار في ثوبٍ فارسي رقيق، أخذ من المدنيتين ما راقه، ومزجهما مزجًا جميلًا، فكان آية بهرت، أو كما قال أبو الطيب المتنبي في مدحه:

عربيٌّ لسانه فلسفي		رأيه فارسية أعياده
خلق الله أفصح الناس طرًا		فلا بلاد أعرابه أكراده

لم تتناول ثقافة ابن العميد الشعر والنثر؛ أي الأدب فقط؛ بل كانت ثقافة العالِم الحكيم، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفة وعلم الحيل وجر الأثقال.

والتصوير والهندسة والطبيعة، إلى معرفته الواسعة بالسياسة والحرب. وكان على الكاتب المثقف في ذاك العصر اتقان الفلك والطبيعيات والرياضيات فضلًا عما يحتاج إليه من لغة ونحو وتصريف وتاريخ وشريعة، وكانت العجم تقول: من لم يكن عالمًا بإجراء المياه، وبحفر فُرض الماء والمسارب، وردم المهاري ومجاري الأنهار في الزيادة والنقصان، واستهلال القمر وأفعاله، ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه، وحال أدوات الصناع، ودقائق الحساب -كان ناقصًا في حال كتابته.

ويؤذن ما رُوي من مجالس ابن العميد وتنوقل من آرائه بأنه لم يكن نُتَفَة في هذه العلوم، بل كان مشاركًا أعظم مشاركة. قالوا: كان إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلم، فأراد امتحان عقله سأله عن بغداد، فإن فطن لخواصها، وتنبه على محاسنها، وأثنى خيرًا عليها، جعل ذلك مقدمة فضله، وعنوان عقله، ثم يسأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثرًا لمطالعةكتبه، والاقتباس من ألفاظه، وبعض القيام بمسائله، قضى له بأنه غرَّة شادخة[1] في أهل العلم، وإن وجده ذامًّا لبغداد غفلًا عما يجب أن يكون موسومًا به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن.

هذا تصوير لبعض منازع الأستاذ الرئيس، ولم نجارِ من توسعوا في تصوير سيرته، وبالغوا في أدبه وأكثروا، ومنهم الثعالبي في يتيمة الدهر، ومسكويه في تجارب الأمم. لا جرم أن ابن العميد عظيم بأدبه، ولكن ألا يذهب الفكر إلى أنه كان له بحكم منصبه السامي -ومفاتيح خزائن الدولة في يده يفضل على العلماء

(١) غرة شادخة: غشت الوجه من الناصية إلى الأنف.

والشعراء من قاصديه وغير قاصديه- ما زاد في شهرته، وعظَّم في النفوس أدبه، وربما كان من حبِّ بعضهم له أن جملوا صورته على غير قصد.

وبعد الذي رأينا من مبالغات الشعراء في كل عصر، ملنا إلى التوقف في الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذي قيل فيهم. شهدنا شعراء مدحوا رجالًا وهجوهم في آن واحد، فأي أقوالهم نصدق؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبي من الأماديح ثيابًا فضفاضة خلد بها ذكره، ولو بحثنا في سيرة سيف الدولة ما زدنا في تعريفه على ما نصف به ملكًا جائرًا مستبدًا، يستحل أكل الأموال بالباطل، ويخربُ ولايته لينفق ما يسلب في أبهته وبذخه[1]، ويفرط في الإفضال على مادحيه. وإنا إذا تأملنا هجو المتنبي كافور الإخشيدي بعد أن مدحه ورفعه، نسجل أنه ظلمه كثيرًا، فإن سيرته كانت أزكى من سيرة سيف الدولة، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وأمثال ابن حمدان من ظلمة الملوك والأمراء. وهكذا يقال في أكثر ما نسجه الشعراء من أماديح العظماء والأمراء، فلما قصروا في العطاء تراجع الشعر وذهبت بهجته.

ولو قد هممنا بأخذ صورة للملوك والعظماء مما مدحهم به الشعراء لبعدنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعدًا كثيرًا. وكذلك لو صدقنا كل ما هجا به الهاجون، لما رسمنا لمهجو صورة صحيحة. والشعر قام في الأكثر على المديح والهجاء، وعلى المبالغة في كل منهما، وهناك الأهواء السياسية، والعداوات المذهبية، والطوائل الجنسية. وكم

(١) قال الأزدي في الدول المنقطعة في سنة أربع وخمسين وثلثمائة: صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة، فزوج ابنه أبا المكارم وأبا المعالي بابنة ناصر الدولة، وزوج أبا تغلب بابنته ست الناس، فضرب دنانير في كل دينار ثلاثون دينارًا وعشرون وعشرة عليها مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسين جبريل عليهم السلام؛ وعلى الجانب الآخر: أمير المؤمنين المطيع لله إلخ. ويقال: جاد بها لم يجد به أحد. يقال: إن مبلغ ما جاد به تسعمائة ألف دينار، فتأمل.

من عالم وَصَمَه خصومه بالكفر، وهو أقرب إلى جوهر الشرع من أكثر حاسديه ومخالفيه. وكم من عظيم ألبسه أهل جيله ثوبًا باليًا من حكمهم عليه وما كان أولاهم أن يكسوه الخزّ والديباج. والغرض مرض، وقلَّ أن خلت منه نفس بشرية. لا جرم أن الشعر العربي على الغلو في نسيبه وتشبيبه وغزله ومديحه وهجائه يؤخذ على علاته، وقلما يسقط فيه على حقيقة إلا في الحكم والعبر، ومتى جعلناه عمدتنا في الترجمة للرجال نضل ضلالًا بعيدًا.

وبعد؛ فإن من سعادة ابن العميد أن يطول عهده في الوزارة، ومن سعادته أن يكون على أخلاق فاضلة، وسياسة ناجحة، يستميل بها قلوب الدهماء الأدباء، ومن سعادته أن يرزق عقلًا ناقدًا، وبصيرة نافذة، وثقافة كاملة، ومن سعادته أن يظلَّ وهو رأس الدولة، على تنمية معارفه ومواهبه إلى الزمن الذي استأثر الله به في همدان، وهو في طريق القضاء على الناشزين على الملك. كل أولئك زاد في وزنه، وهو في حقيقته أديب عظيم مجدود، لم تبطره النعمة، ولا أسكره تيه الإمارة وإقبال الدنيا، وكان له من تليد مجده وطريفه ما وَقره في الصدور، ومن الفضائل والمكارم ما أمتعه بالصيت البعيد، تمتع بما يتمتع به الملوك في سلطانهم، وشارك الأدباء في مجدهم الأدبي. ولو رحمت الأيام ثروة أدبية خلفها عظيم طالما رحم الناس؛ لكان الحكم عليه أفصح من هذا.

نموذجات من كتابته وشعره:

كتب ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري لما استحضره عضد الدولة للمنادمة وفيه زاموز من بُعد نظره في سياسة الملوك قال: «وقفت على ما وصفته من برّ الأمير بك، وتوفره عليك، وليس العجب أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاياته، وإنما العجب أن يقصر في شيء من مساعيه عن نيل المجد كله، وحيازة الفضل بأجمعه،

وقد رجوت أن يكون ما يغرسه أجدر غرس بالزكاء، وأضمنه للرَّيع والنماء، فارع ذلك واركب في الخدمة طريقة تبعدك من الملال، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال، فلأن تدعى من بعيد مرات، خير من أن تُقصى من قريب مرة. وليكن كلامك جوابًا تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب، ولا تعجبنك تأتي كلمة محمودة فيلجَّ بك الإطناب توقعًا لمثلها، فربما هدمت ما بنته الأولى. وبضاعتك في الشرب مزجاة، وبالعقل يزمّ اللسان ويلزم السداد، فلا يستفزنك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك، والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة، وإلى الإسعاف هشة، فأظهر ما في نفسك غير محقق، ولا توهم أن في الرد عليك ما يوحشك، ولا في المنع ما يغيظك، وليكن انطلاق وجهك إذا دفعت عن حاجتك، أكثر منه عند نجاحها على يدك، ليخفَّ كلامك ولا يثقل على سامعه منك. أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد، فقد كمَّل الله خصالك وفضلك في ذلك كله، لكن أُنبه تنبيه المشارك، وأعلم أن للذكرى موقعًا منك لطيفًا».

وكتب إليه أيضًا: «كتابي وأنا بحال لو لم ينغّص منها الشوق إليك، ولم يرنق[1] صفوها النزاع نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة، فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك، ويخلو ذرعي[2] مع خلوِّي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك؛ وكيف

(١) يرنق: يكدر.

(٢) رجل واسع الذراع والذرع: أي الخلق، والذرع: النفس، وضاق بالأمر ذرعه وذراعه وضاق به ذرعًا: ضعفت طاقته.

أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشمل أنسي، وقد حُرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس بيت بلا نظام، وقد قرأت كتابك -جعلني الله فداءك- فامتلأت سرورًا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أُقرظهما، فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي[1]، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري» اهـ.

قلنا: وهذا من مسجوعاته، وفيه من المبالغات الفارسية ما كاد يذهب ببهجته وجميل عاطفته، ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وابن الزيات، والصولي، لجاء موضوعه في سطرين سهلين على السمع والطبع، مقبولين في العرف والعادة، لا علو فيهما ولا إغراق.

وكتب إليه فصلًا أوله سجع كله، لم تفلت منه جملة بدونه، إلى أن قال وقد ذكر دعواه في العلم: «وهبك أفلاطون نفسه فأين ما سنته من السياسة؟ فقد قرأناه فلم نجد فيه إرشادًا إلى قطيعة صديق، فأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناه فلم نرَ فيه هداية إلى شيء من العقوق، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه، وقدر الحق عليه أوله، بل لك في رؤساء العربية مناديح ومضطرب، ولسنا نشاحّك، لكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل؟ وقد اغتربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه وبَصَر به، وقد اختصرته أوجز اختصار، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة، ويرضي بك أسوة؛ فقلت: الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع، والصدق والوفاء وما

(١) العقد: الضمان والعهد.

صاحبها مخفوض، وقد نصب الصديق عندك، ولكن غرضًا يرشق بسهام الغيبة، وعلمًا يقصد بالوقيعة، ولست بالعروضي ذي اللهجة فأعرف قدر حذقك فيه، إلا أني لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب». وهذا الكلام أشبه بنسجه وفكره بكلام أهل القرن التاسع والعاشر!

وكتب إلى بعض إخوانه: أنا أشكو إليك -جعلني الله فداك- دهرًا خئونًا غدورًا، وزمنًا خدوعًا غرورًا، لا يمنح ما يمنح إلا ريثما يتنزع، ولا يبقي فيما يهب إلا ريثما يرتجع، يبدو خيره لمعًا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جُرعًا ثم يمتنع، وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض. وكنا نلبسه على ما شرط، وإن خاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستنيم لقصده وظلمه، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتًا بلا انفراج، ولا يأتي مكروهه صرفًا بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته، ونسترقه من ساعاته، وقد استحدث غير ما عرفناه، سنة مبتدعة، وشريعة متبعة، وأعد لكل صالحة من الفساد حالًا، وقرن لكل خلة من المكروه خلالًا؛ وبيان ذلك -جعلني الله فداك- أنه كان يقنع من معارضته الإلفين، بتفريق ذات البين، فقد انثنى ممنونًا فيك بجميع ما أُوغره، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره، وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه، وألزمته جُرمًا لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي إليه، ولو أنك أعنته وظاهرته، وقصدت صرفه وآزرته، وبعتني بيع الخَلَق، وليس فيمن زاد، ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع، واطرحتني إطراح غير مجامل، فهلا وجدت نفسك أهلًا للجميل حين لم تجدني هناك، وأتعذب من جل ما عقدت من غير جريمة، ونكثت ما عهدت من غير جريرة، فأجبني عن واحدة منهما؛ ما هذا التغالي بنفسك، والتعالي على

صديقك؟ ولِمَ نبذتني نبذ النواة، وطرحتني طرح القذاة، ولم تلفظني من فيك، وتمجني من حلقك؟ وأنا الحلال الحلو البارد العذب، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة، فترسل سلامًا إن لم تتجشم مكاتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة، وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، واسمه من صحيفة حفظك، ولعلك أيضًا تتعجب من طمعي فيك وقد وليت، واستمالتي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبًا فيعود إلى الوصال؛ وآخر ما أقوله أن ودي وقف عليك، وحبسٌ في سبيلك، ومتى عدت إليه وجدته غضًّا طريًّا، فجربه في المعاودة فإنه في العود أحمد.

وهذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة معًا، وبأدنى تأمل يدرك المتمعن فيها أن ابن العميد لما اطرح في آخرها السجع جوَّد، وكان في أولها لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والصابي من أهل جيله عُشَّاق السجع، يأتي بإسجاع لو طرح أكثرها لاستقام المعنى وخلص من لوثات التكلف والتعسف. وفي اليتيمة: ويقال: إن أحسن رسائله الإخوانيات، ما كاتب به أبا العلاء (السروي) لصدوره عن صدر مائل إليه، محب له، مناسب بالأدب إياه؛ فصل من رسالة له إليه في شهر رمضان وهو مما لم يسبق إليه: كتابي -جعلني الله فداك- وأنا في كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم، ومرتهن بتضاعف حرور، ولو أن اللحم يصلي ببعضها غريضًا أتى أصحابه وهو منضَج، وممتحن بهواجر يكاد أُوارها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن التحديق، ويزويه عن التبصر، ويقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق. وأحمد

الله على كل حال، وأسأله أن يعرفني فضل بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد عليَّ غرة شوال فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان، ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر؛ ويسلط عليه الحَوْر بعد الكور[1]، ويرسل على رقاقته[2] التي يغشى العيون ضوءها، ويحط من الأجسام نوءها، كلفًا يغمرها، وكسوفًا يسترها، ويرينيه مغمور النور، مقمور الظهور، قد جمعه والشمس برج واحد، ودرجة مشتركة، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من طرف الزند، ويبعث عليه الأَرَضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود، ويبليه بالفار، ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذَّر، ويجعله من نجوم الرجم، ويرمي به مسترق السمع، ويخلصنا من معاودته، ويرحنا من دوره، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به فعله بالكتان، ويصنع به صنعه بالألوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه، ويرحم الله عبدًا قال آمينًا. وأستغفر الله -جل وجهه- مما قلته إن كرهه، وأستعفيه من توفيقي لما يذمه، وأسأله صفحًا يفيضه، وعفوًا يسيغه، وحالي بعد ما شكوته صالحة، وعلى ما تحب وتهوى جارية؛ ولله الحمد -تقدست أسماؤه- والشكر. اهـ.

وهذه الرسالة أيضًا لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة في بابها.

---

(١) في الحديث: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ معناه النقصان بعد الزيادة، وقيل: معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها.

(٢) الرقاق كغراب: الخبز الرقيق، الواحدة رقاقة.

قال الثعالبي: وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة غرة كلامه وواسطة عقده؛ وما ظنك بأجود كلام لأبلغ إمام؟ قال فصل من أولها: «كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك؛ فإنك تدل بسابق حرمة، وتمتُّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانة، وتتبعها بآنف خلاف ومعصية وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك؛ لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أُقدم رجلًا لصدك، وأُوخر أخرى عن قصدك، وأبسط يدًا لاصطلامك واجتياحك[2]، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنًّا بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك، وتأميلًا لفيئتك[3] وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يئوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستبطاء والمطاولة ما أمكن طمعًا في إنابتك، وتحكيمًا لحسن الظن بك. فلست أعدم فيما أُظاهره من إعذار، وأُرادفه من إنذار، احتجاجًا عليك، واستدارجًا لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك».

---

(١) الغلول: الخيانة في المغنم خاصة، وآنف: جمع أنف.

(٢) الاجتياح، كالاصطلام: الاستئصال.

(٣) الفيئة: الرجعة.

وأكثر السجعات الثانية من هذا الكتاب إذا حذفت لا يختل المعنى، وتستقيم العبارة، وتختصر اختصارًا محمودًا.

ونقل الثعالبي فصلًا آخر من الكتاب وختمه بقطعة منه جاء فيها: «تأمل حالك، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها، والمس جسدك، وانظر هل يحس؟ واجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح[1]، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله». قال الثعالبي: بلغني عن ابن بلكا، وكان آدب أمثاله، أنه كان يقول: والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي، واستصلاحي ورَدِّي إلى طاعة صاحبه.

وقال الثعالبي في المضاف والمنسوب: وقرأت في رسالة لابن العميد إلى ابن سمكة: «جرّب -جعلت فداءك- ما قلته، واختبرني فيما ادعيته، فإن لم أفعل فدمي حلال لك، فاقتلني بسيف الفرزدق، وكُلني بخل وخردل». وسيف الفرزدق يضرب مثلًا للسيف الكليل بيد الجبان.

وفي الإعجاز والإيجاز: من أحاسن كلام ابن العميد: العاقل من افتتح في كل أمر خاتمته، وعلم من بدءِ كل شيء عاقبته؛ وقال يومًا على المائدة: أطيب ما يكون الحمل إذا حلت الشمس الحمل. وقال صاحب اليتيمة أيضًا: وأقرأني أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي، وقد اجتمعنا بإسفرايين عند زعيمها أبي العباس الفضل بن علي، فصلًا من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل، فنهني على شرفه في جنسه، وحرَّك مني ساكنًا معجبًا بحسنه،

(١) سهل.

متعجبًا من نفاسة معناه وبراعة لفظه، وهو: وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها، وانتقاض مِرَرها[١]، والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الوباء، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء، فإن كان ذلك يخترم العلوم اخترامًا، وينتهكها انتهاكًا، ويجتث[٢] أصولها اجتثاثًا، وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولّده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته، فإن البلاء به لا يعدله بلاء، وبحسب عظم المحبة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته، تعظم النعمة في تملك السلطان عالم عادل، كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها، وهي نوازٍ[٣] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه، وشرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه، تتلفت إليه تلفُّت الوامق، وتتشوف نحوه تشوُّف الصب العاشق، قد ملكتها وحشة المضاع، وحيرة المرتاع.

فإن تغش قومًا بعده أو تزورهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله، ومنها: الرتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب، ولا تدرك إلا بتجشم كُلفة ونصب؛ رأس المال خير من الربح، والأصل أولى بالعناية من الفرع؛ المرء أشبه شيء بزمانه، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه، قد يبذل المرء ماله في إصلاح أعدائه، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه؛ هل السيد إلا من تهابه إذا حضر، وتغتابه إذا أدبر؛ الإبقاء على خدم السلطان عِدْل[٤] الإبقاء على ماله، والإشفاق على حاشيته وحشمه مثل

(١) المرة: قوة الخلق وشدته (ج) مرر وأمرار.

(٢) الجث: القطع.

(٣) نزا: وثب.

(٤) العدل بكسر العين وإسكان الدال: المثل.

الإشفاق على دينار ودرهمه؛ المزح والهزل بابان إذا فُتحا لم يُغلقا إلا بعد العسر، وفحلان إذا أُلقحا لم يُنتجا غير الشر؛ من أسرَّ داءه، وكتم ظمأه، بعُد عليه أن يُبل من علله، ويَبُل من غُلله؛ خير القول ما أغناك جده، وألهاك هزله؛ ينبغي للملك أن يستظهر على أعدائه بسبعة أجناس من الناس، فيتخذ الأحرار عُدَد ملكه، والأعراب أُمناء جيشه، والديلم أركان جنده، والخُتّل[١] جمرات عسكره، والأتراك خواص أصحابه، والهند حراس قلاعه، والأكراد غلفًا[٢] لسيوف أعدائه.

ومن كلامه: قد تتسمح الأيام بما تمنع، وتتساهل ثم تقطع، وتصل الغبطة بالرزية، والمحنة بالمنحة، ولها ثمرات تبتدر، وغفلات تُنتهز. القلوب أوعية يشرحها الرفق، ويبسطها اللطف، ويفسحها التمرين، وإذا تجوز بها هذه الخلال إلى الاستكراه والإملال، خرجت عن احتواء علم، وضاقت عن ضبط فهم، وفاضت بما تستودع. قدّم من خيرك ما لا ينفعك تأخيره، واحصد الشر قبل استفحاله، وقوم الميل ما دام الغصن غضًّا يقبل التقويم، ورطبًا يطيع التثقيف، ولا تنتظر به العُسُوَّ[٣] والامتناع، وداوِ فتقًا تُنهره الأيام خرقًا إن تركته، وارأب شعْبًا[٤] يزيده الدهر وهيًا إن أغفلته.

ومن جميل جمله: إلى الذل عاقبة المستبد العزيز، وإلى العز عاقبة المستبشر الذليل فتعوذ من موبقات الكبر بمنجيات التواضع، ومن مطغيات الغنى بكافيات التقنع، ومن سكرات الاستبداد بصحوات الإشارة، ومن عثرات البغي باستفالة الاستخارة.

---

(١) الختل كسكر: كورة فيما وراء النهر.

(٢) عيش أغلف: واسع، وسيف أعلق بين الغلف وقوس غلقاء في غلاف.

(٣) العسو: الغلظ واليبس.

(٤) أصلح الصدع.

ولابن العميد شعر فيه كثير من شعوره، ودليل على علو كعبه واتساع باعه، وقد ذكر الثعالبي في كتابه خاص الخاص أن من أظرف شعره قوله في غلام قام على رأسه يظلله من الشمس:

قامت تظللني من الشمس ... نفسٌ أعز عليَّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب ... شمس تظللني من الشمس

وقوله في مداد أهداه له صديق:

يا سيدي وعمادي ... أمددتني بمدادِ
كمسكنيّك جميعًا ... من ناظري وفؤادي
أو كالليالي اللواتي ... رمينا بالبُعاد

ومن قوله:

متى علقت نفسي حبيبًا تعلقت ... به غير الأيام تسلبنيه

وقال:

وسألتك العتبى فلم ترني لها ... أهلًا وجئت بعذرة شوهاءِ
وردت مموَّهة فلم يرفع لها ... طرف ولم ترزق من الإصغاء
فأعار مُنطقها النديم شكية ... فتراجعت تمشي على استحياء
لم تشف من كمد ولم تبرد على ... كبد ولم تمسح جوانب داء
داوت جوى بجوى وليس بحازم ... من يستكف النارَ بالحلْفاء

وقال:

فلو أن ما أبقيت من جسمي قذى ... في العين لم يمنع من الإغفاء

وقوله في الأقارب:

آخ الرجال من الأبا ... عد والأقارب لا تقارب

إن الأقـــــارب كالعقـــــا رب بـــل أضر مـــن العقـــارب

ولأبي الفضل على رواية ابن النديم من الكتب كتاب ديوان رسائله، وكتاب المذهب في البلاغات؛ وذكره ابن حاجب النعمان في الشعراء الكُتَّاب وقال: إن له خمسين ورقة.

تمَّ أمراء البيان والحمد لله تعالى

obeikandl.com